الشيطان ، فيقول الواحد منهم : لقد أغوانى الشيطان ، ولا يتهم نفسه ، وهذا يكذّبه الحديث النبوى فى رمضان :

« إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وصُفِّدت الشياطين »[1] .

فلو أن المعاصى كلها من قِبَل الشيطان ما رأينا معصية فى رمضان ، ولا ارتكبت فيه جريمة ، أما وتقع فيه المعاصى وتُرتكب الجرائم ، فلا بُدَّ أن لها سبباً آخر غير الشيطان ؛ لأن الشياطين مُصفَّدة فيه مقيدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

يعنى : مَنْ أراد أن يُخلِّص نفسه من الجدل بغير علم ، وبغير هدى ، وبغير كتاب منير ، فعليه أنْ يُسلم وجهه إلى الله ؛ لأن الله تعالى قال فى آية أخرى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص] ثم استثنى منهم ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء]

ومعنى ﴿ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان] أخلص وجهه فى

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٧٩) ، والإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٥٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

عبادته لله وحده ، وبذلك يكون فى معية الله ، ومَنْ كان فى معية ربه فلا يجرؤ الشيطان على غوايته ، ولا يُضيع وقته معه ، إنما ينصرف عنه إلى غافل يستطيع الدخول إليه ، فالذى ينجيك من الشيطان أنْ تُسلِم وجهك لله .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالولد الصغير حينما يسير فى صحبة أبيه فلا يجرؤ أحد من الصبيان أن يعتدى عليه ، أما إنْ سار بمفرده فهو عُرْضة لذلك ، لا يَسْلَم منه بحال ، كذلك العبد إنِ انفلتَ من يد الله ومعيته .

وهذا المعنى ورد أيضاً فى قوله سبحانه : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة] وهنا قال ﴿ إِلَى اللَّهِ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان] فما الفرق بين حرفى الجر : إلى ، اللام ؟

استعمال (إلى) تدل على أن الله تعالى هو الغاية ، والغاية لا بُدَّ لها من طريق للهداية يُوصِّل إليها . أمَّا (اللام) فتعنى الوَصْل لله مباشرة دون قطع طريق ، وهذا الوصول المباشر لا يكون إلا بدرجة عالية من الإخلاص لله .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان] يعنى : أنك على الطريق الموصِّل إلى الله تعالى ، وأنك تؤدى ما افترضه عليك .

ومن إسلام الوجه لله قَوْل ملكة سبأ : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل] الكلام هنا كلام ملكة ، فلم تقل : أسلمتُ لسليمان ، لكن مع سليمان لله ، فلا غضاضة إذن .

وإسلام الوجه لله ، أو إخلاص العمل لله تعالى عملية دقيقة تحتاج

من العبد إلى قدر كبير من المجاهدة ؛ لأن النفس لا تخلو من هفوة ، وكثيراً ما يبدأ الإنسان العمل مخلصاً لله ، لكن سرعان ما تتدخل النفس بما لها من حب الصِّيت والسمعة ، فيخالط العملَ شيء من الرياء ولو كان يسيراً .

لذلك ؛ فإن سيدنا رسول الله ﷺ يتحمل عنا هذه المسألة ويطمئن المسلم على عمله ، فيقول في دعائه : « اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطني فيه ما ليس لك »(١) .

والنبي ﷺ ليس مظنة ذلك ، لكن الحق سبحانه علَّمه أن يتحمل عن أمته كما تحمَّل الله عنه في قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ .. (٣٣) ﴾ [الأنعام] أي : أنك أسمى عندهم من أن تكون كاذباً .

﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ .. (٢٢) ﴾ [لقمان] كلمة استمسك تدلُّ على القوة في الفعل والتشبُّث بالشيء ؛ كما نقول (تبِّت فيه) ، وهي تعني : طلب أنْ يمسك ؛ لذلك لم يَقُل مسك إنما (استمسك) .

وأول مظاهر الاستمساك أنك لا تطمئن إلى ضعف نفسك ، فيكون تمسكك بالعروة الوثقى أشدّ ، كما لو أنك ستنزل من مكان عالٍ على حبل مثلاً فتتشبث به بشدة ؛ لأنك إنْ تهاونت في الاستمساك به

---

(١) قال سفيان بن عيينة : كان من دعاء مطرف بن عبد الله : « اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ، ثم لم أف لك به ، وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك ، فخالط قلبي منه ما قد علمت » ذكره ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (ص ٢٧) وانظر حلية الأولياء (٢/٢٠٧) .

سقطت ، وهذا دليل على ثقتك بضعف نفسك ، وأنه لا يُنجيك من الهلاك ، ولا واقيَ لك إلا أنْ تستمسك بهذا الحبل .

كذلك الذى يُسْلِم وجهه لله ويُمسك بالعروة الوثقى ، فليس له إلا هذه مُنْجية وواقية .

وكلمة ﴿ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ..(٢٢) ﴾ [لقمان] العروة : هى اليد التى نمسك بها الكوز أو الكوب أو الإبريق ، وهى التى تفرق بين الكوب والكأس ، فالكأس لا عروة لها ، إلا إذا شُرِب فيها الشراب الساخن ، فيجعلون لها يداً .

ومعنى ﴿ الْوُثْقَىٰ ..(٢٢) ﴾ [لقمان] أى : المحكمة ، وهى تأنيث أوثق ، نقول : هذا أوثق ، وهذه وُثْقى ، مثل أصغر وصُغْرى ، وهى تعنى الشىء المرتبط ارتباطاً وثيقاً بأصله ، فإنْ كان دَلْواً فهى وُثْقى بالدلو ، وإنْ كان كوباً فهى وُثْقى بالكوب ، فهى الموثقة التى لا تنقطع ، ولا تنفصل عن أصلها .

والعُرْوة تختلف باختلاف الموثِّق ، فإنْ صنع العروة صانع غاشٌ ، جاءت ضعيفة هشّة ، بمجرد أنْ تمسك بها تنخلع فى يدك ، وهذا ما نسميه « الغش التجارى » وهو احتيال لتكون السلعة رخيصة يقبل عليها المشترى ، ثم يكون المعوِّض فى ارتفاع قطع الغيار ، كما نرى فى السيارات مثلاً ، فترى السيارة رخيصة وتنظر إلى ثمن قطع الغيار تجده مرتفعاً .

إذن : إرادة عدم التوثيق لها مقصد عند المنتفع ، فإذا كان الموثِّق هو الله تعالى فليس أوثق من عُرْوته .

وفى موضع آخر يقول الحق عنها ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا

تَفَرَّقُوا .. (١٠٣)﴾ [آل عمران] فالعروة الوُثْقى هى حبل الله المتين الذى يجمعنا فلا نتفرق ؛ لذلك فى الاصطلاح نسمى الفتحة فى الثوب والتى يدخل فيها الأزرار (عروة) لماذا ؟ لأنها هى التى تجمع الثوب ، فلا يتفرق .

وفى آية أخرى وصفَ العروة الوثقى بقوله سبحانه : ﴿ لا انفِصَامَ لَهَا .. (٢٥٦)﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٢٢)﴾ [لقمان] أى : مرجعها ، فلا نظن أن الله تعالى خلقنا عبثاً ، أو أنه سبحانه يتركنا سُدًى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون] . ولو تركنا الله تعالى بلا حساب لكان المنحرف الذى أعطى لنفسه شهواتها فى الدنيا أوفر حظاً من المستقيم ، وما كان الله تعالى ليغشَّ عبده الذى آمن به ، وسار على منهجه ، أو يسلطه للظلمة والمنحرفين .

وإذا كانت لله تعالى عاقبة الأمور أى : فى الآخرة ، فإنه سبحانه يترك لنا شيئاً من ذلك فى الدنيا نصنعه بذواتنا لتستقيم بنا مسيرة الحياة وتثمر حركتها ، ومن ذلك مثلاً ما نجريه من الامتحانات للطلاب آخر العام لنميز المجدّ من الخامل ، وإلا تساوى الجميع ولم يذاكر أحد ، ولم يتفوق أحد ؛ لذلك لابُدَّ من مبدأ الثواب والعقاب لتستقيم حركة الحياة ، فإذا كنا نُجرى هذا المبدأ فى دنيانا ، فلماذا نستنكره فى الآخرة ؟

فهل يليق بهذا العالَم الذى خلقه الله على هذه الدقة ؛ وكوَّنه بهذه الحكمة أن يتركه هكذا هَمَلاً يستشرى فيه الفساد ، ويرتع فيه المفسدون ، ثم لا يُحاسبون ؟ إن كانت هذه هى العاقبة ، فيا خسارة كل مؤمن ، وكل مستقيم فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾

بعد أن بيَّن الحق سبحانه أن إليه مرجع كل شيء ونهاية الأمور كلها ، أراد أن يُسلِّي رسوله ﷺ فقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان] أي : بعدما قلناه من الجدل بالعلم وبالهدى وبالكتاب المنير ، وبعدما بيناه من ضرورة إسلام الوجه لله ، مَنْ يكفر بعد ذلك ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان]

وهذا القول من الله تعالى لرسوله ﷺ يدل على أن الله علم أن رسوله يحب أن تكون أمته كلها مؤمنة ، وأنه يحزن لكفر من كفر منهم ويؤلمه ذلك ، وقد كرر القرآن هذا المعنى في عدة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف] ويقول : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء]

فالله تعالى يريد أنْ يقول لرسوله : أنا أرسلتُك للبلاغ فحسب ، فإذا بلَّغْت فلا عليك بعد ذلك ، وكثيراً ما تجد في القرآن عتاباً لرسول الله في هذه المسألة ، وهو عتاب لصالحه لا عليه ، كما تعاتب ولدك الذي أجهد نفسه في المذاكرة خوفاً عليه .

ومن ذلك قوله تعالى معاتباً نبيه ﷺ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [عبس]

والعتاب هنا لأن رسول الله ﷺ ترك الرجل المؤمن الذى جاءه يستفهم عن أمور دينه ، وذهب يدعو الكفار والمكذِّبين به ، فكأنه اختار الصعب الشاق وترك السهل اليسير ، إذن : فالعتاب هنا عتاب لصالح الرسول لا ضده ، كما يظن البعض فى فهمهم لهذه الآيات .

كذلك الأمر فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. ۝١ ﴾ [التحريم] فالله يعاتب رسوله لأنه ضيَّق على نفسه ، فحرَّم عليها ما أحله الله لها[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. ۝٢٣ ﴾ [لقمان] يعنى : إذا لم تَرَ فيهم عاقبة كفرهم ، وما ينزل بهم فى الدنيا ، فسوف يرجعون إلينا ونحاسبهم فى الآخرة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ .. ۝٧٧ ﴾ [غافر] أى : ترى بعينك ما ينزل بهم من العقاب ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٧٧ ﴾ [غافر]

إذن ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. ۝٢٣ ﴾ [لقمان] هذه هى الغاية النهائية ، وهذه لا تمنع أن نُريك فيهم أشياء تُظهر عزتك وانتصارك عليهم وانكسارهم وذلَّتهم أمامك ، وهذا ما حدث يوم الفتح يوم أنْ دخل النبى مكة منتصراً ومتواضعاً يطأطىء رأسه[2] بأدب وتواضع ؛ لأنه

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٨٦) : « اختلف فى سبب نزول صدر هذه السورة (التحريم) فقيل : نزلت فى شأن مارية ، فعن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها . والصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العسل ، فعن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها فتواطات أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير فقال : لن أعود له ولا تخبرى بذلك أحداً » اهـ بتصرف .

(٢) يذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٥) « أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذى طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حبرة حمراء ، (أى : أنه كان متعمماً بنصف برد من برود اليمن . عمامة بغير ذؤابة) ، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه ليكاد يمسُّ واسطة الرحل » . والعثنون : هو ما نبت على الذقن وتحته سفلاً . وقيل : هو طولها وما تحتها من شعرها .

يعلم أن النصر من الله ، وكأنه ﷺ يقول لأهل مكة : لقد كنتم تريدون المُلْك لتتكبروا به ، وأنا أريده لأتواضع به ، وهذا هو الفرق بين عزَّة المؤمن وعِزَّة الكافر .

لذلك لما تمكن رسول الله من رقابهم - بعد أنْ فعلوا به ما فعلوا - جمعهم وقال قولته المشهورة : « يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟» قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

ولك أنْ تلحظ تحوُّل الأسلوب من صيغة الإفراد في ﴿وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ .. (٢٣)﴾ [لقمان] إلى صيغة الجمع في ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. (٢٣)﴾ [لقمان] ولم يقل : إليَّ مرجعه ؛ لأن مَنْ في اللغة تقوم مقام الأسماء الموصولة كلها ، فإنْ أردتَ لفظها فأفردها ، وإن أردتَ معناها فاجمعه .

وقوله تعالى : ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا .. (٢٣)﴾ [لقمان] لأننا نُسجِّله عليهم ونحصيه ، كما قال سبحانه : ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ .. (٦)﴾ [المجادلة] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣)﴾ [لقمان] أي : بنات الصدر ومكنوناته يعلمها الله ، حتى قبل أنْ تُترجم إلى نزوع سلوكي عملي أو قَوْلي ، فالله يعلم ما يختلج في صدورهم من حقد أو غلٍّ أو حسد أو تآمر .

و ﴿عَلِيمٌ .. (١١٩)﴾ [آل عمران] صيغة مبالغة من العلم ، وفَرْق بين عالم وعليم : عالم : ذاتٌ ثبت لها العلم ، أما عليم فذات علْمها ذاتي ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾ [يوسف]

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤١٢/٤) أن رسول الله ﷺ قال بعد أن فتح الله عليه مكة : يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

الحق سبحانه يُبيِّن لكل مؤمن ألاَّ يغتر بحال الكفار حين يراهم فى حال رَغَد من العيش ، وسعة وعافية وتمكُّن ؛ لأن ذلك كله متاع قليل ، والحق سبحانه يريد من أتباع الأنبياء أنْ يدخلوا الدين على أنه تضحية لا مغنم .

وسبق أن أوضحنا أنك تستطيع أن تُفرِّق بين مبدأ الحق ومبدأ الباطل بشىء واحد ، هو استهلال الاثنين ، فالداخل فى مبدأ الحق مستعد لأنْ يُضحِّى ، والداخل فى مبدأ الباطل ينتظر أنْ يأخذ المقابل ؛ لذلك ضحَّى المسلمون الأوائل فى سبيل دينهم بالأنفس والأموال ، وتركوا بلادهم وأبناءهم لماذا ؟ لأنهم مُكلَّفون بأداء مهمة إنسانية عالمية ، لا يحملها إلا مَنْ كان مستعداً للعطاء ، أما أصحاب الدعوات الباطلة كالشيوعية وغيرها فلا بُدَّ أنْ يأخذوا أولاً .

لذلك رُوِى أن صحابياً حين سمع من رسول الله ﷺ البشرى بالجنة ، وأنه ليس بينه وبينها إلا أنْ يحارب فيُقتل ألقى تمرات كانت فى يده[1] ، ولم ينتظر حتى يمضغها ، وأسرع إلى المعركة مُبتغياً الشهادة وطامعاً فيما عند الله ، وقد سُمع منهم فى ساحة القتال أنْ ينادى أحدهم : هُبِّى يا رياحَ الجنة ، وآخر يقول : إنى لأجد ريح

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رجل للنبى ﷺ يوم أُحُد : أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتِل . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) .

الجنة دون أحد[1] .

فقوله تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) ﴾ [لقمان] هذا التمتُّع بزينة الحياة الدنيا ما هو إلا استدراج لهم لا تكريم ، وقلنا : إنك لا تلقى بعدوك من على الحصيرة مثلاً ، إنما تعليه وترفعه ليكون أخْذه أليماً وشديداً ، كذلك الحق سبحانه يُمتِّعهم ، لكن لفترة محدودة لتكون حسرتهم أعظم إذا ما أخذهم من هذا النعيم .

واقرأ في هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام] أي : يائسون .

وكلمة الفتح لا تؤدي نفعاً إلا إذا جاءت معرفة (الفتح) وقلنا : هناك فرق بين فتح لك وفتح عليك ، فتح لك أي : لصالحك ، أمّا فتح عليك أي : أعطاك الدنيا لتكون حمْلاً فوق رأسك .

إذن : فإذا رأيتَ لهم هذا الفتح فلا تغترّ به ، واعلم أنهم نَسُوا ما ذُكِّروا به . وقد ورد في الأثر أن الله تعالى إذا غضب من المرء رزقه من الحرام ، فإذا اشتد غضبه عليه بارك له فيه .

ذلك ليظل في سَعَة ورَغَد عيش وعُلو مكان ، حتى إذا أخذه الله آلمه الأخذ واشتد عليه ، فأخْذُ الكافر وهو في أوْج قوته وجبروته يدل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٠٥) من حديث أنس بن مالك قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين . ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب النضر ، إني أجد ريحها من دون أحد » الحديث .

على قوة الأَخْذ وقدرته ، أما الضعيف فلا مزيّة فى أخْذه ، كالذى يريد أنْ يحطم الرقم القياسى مثلاً ، فإنه يعمد إلى أعلى الأرقام فيحطمها ليثبت جدارته .

ومن ذلك أيضاً نرى أن القرآن لما أراد التحدى ببلاغته وفصاحته تحدَّى العرب ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة وفن الأداء البيانى ، ولا معنى لأنْ يتحدى عَيّياً لا يقدر على الكلام .

ومعنى ﴿نَضْطَرُّهُمْ .. (٢٤)﴾ [لقمان] نلجئهم أى : نُضيِّق عليهم الخناق ، بحيث لا يجدون إلا العذابَ الغليظ ، أو : أن فترة الحساب وما قبل العذاب أشدّ من العذاب نفسه ، كما جاء فى الحديث من « أن الشمس تدنو من الرؤوس ، حتى ليتمنى الناسُ الانصرافَ ولو إلى النار »[1] .

ووصف العذاب هنا بأنه ﴿غَلِيظٍ (٢٤)﴾ [لقمان] والغلظ يعنى السُّمْك ، فالمعنى أنه عذاب كبير يصعب قلقلة النفس منه ، فلو كان رقيقاً لربما أمكن الإفلات منه .

ثم يعود السياق إليهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾

---

(١) فى صحيح مسلم من حديث المقداد بن الأسود قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل . فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً » . التذكرة للقرطبى ص ٢٧٤ .

هذا إفحام لهم ، حيث شهدوا بأنفسهم أن الله تعالى هو خالق السموات والأرض ، وتعجب بعد ذلك لأنهم ينصرفون عن عبادة الخالق سبحانه إلى عبادة مَنْ لا يخلق ولا يرى ولا يسمع .

لذلك بعد هذه الشهادة منهم ، وبعد أنْ قالوا (الله) يُتبعها الحق سبحانه بقول ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] أى : الحمد لله ؛ لأنهم أقروا على أنفسهم ، ونحن فى معاملاتنا نفعل مثل هذا ، فحين يعترف لك خَصْمك تقول : الحمد لله .

وهذه الكلمة تُقال تعليقاً على أشياء كثيرة ، فحين يعترف لك الخَصْم بما تريد تقول : الحمد لله ، وحين يُخلِّصك الله من أذى أحد الأشرار تقول : الحمد لله أى : الذى نجانا من فساد هذا المفسد .

فلو بلغنا خبر موت أحد الأشقياء أو قُطّاع الطرق نقول : الحمد لله أى : الذى خلصنا من شرِّه ، وأراح منه البلاد والعباد ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴾ [الأنعام]

كذلك تقال حينما يُنصَف المظلوم ، وتُردُّ إليه مظلمته ، أو تظهر براءته ، كما سنقول ـ إنْ شاء الله ـ فى الآخرة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) ﴾ [فاطر]

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) ﴾ [الزمر]

فالحمد لله تُقال أيضاً عند خلوصك إلى غاية تُخرجك مما كنتَ فيه

من الضـيق ، ومن الهَمِّ ، ومـن الحـزن ، وتقـال حيـن ندخل الجنة ، وننعم بنعيمها ونعلم صدْق الله تعالى فيما أخبرنا به من نعيمها .

هذا كله حَمْد على نعـمه ، وهناك الحمـد الأعلى : ألم تقرأ الـحديث القـدسى : « إن الله يتـجلى على خَـلْقـه المـؤمنين فى الجنة فـيـقـول : يا عبادى ، ألا أزيدكم ؟ فيقولون : وكـيف تزيدنا وقد أعطيْتنا مَا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سـمـعتْ ، ولا خطر على قلب بشـر ؟ قـال : أُحلُّ عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعدها أبداً »[1] فماذا بعد هذا الرضوان ؟

يقول تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) ﴾ [الزمر]

هذا هو الحمد الأعلى ، فقد كنت فى الحمد مع النعمة ، وأنت الآن فى الحمد مع المنعم سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [لقمان] وهم أهل الغفلة عن الله ، أو ﴿ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [لقمان] أى : العلم الحقـيقى ، النافع ، وإنْ كـانوا يعلمون العلم من كـتاب غـير منير ، أو : يعـلمون العلم الذى يُحقِّق لهم شهواتهم .

ثم ينتقل السياق إلى آيات كونية فيقول سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) ﴾

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٤٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٢٩) من حديث أبى سعيد الخدرى ، ولفظه : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك . فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك . قالوا : يا رب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

بعد أن سجَّل الله تعالى عليهم اعترافهم وشهادتهم بأنه سبحانه خالق السموات والأرض ، أراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن السموات والأرض ظرف لما فيهما ، وفيهما أشياء كثيرة ، منها ما نعرفه ، ومنها ما لا نعرفه ، والمظروف دائماً أغلى من المظروف فيه ، فما فى (المحفظة) من نقود عادة أغلى من المحفظة ذاتها ، وما فى الخزانة من جواهر وأموال أو أوراق هامة أنفَسُ من الخزانة وأهمّ .

لذلك قلنا : إياك أنْ تجعل كتاب الله حافظة لشىء هام عندك ؛ لأنه أغلى من أىِّ شىء فينبغى أنْ نحفظه ، لا أنْ نحفظ فيه .

وكأن فى الآية إشارة إلى أنهم كما أقرُّوا لله تعالى بخَلْق السموات والأرض ينبغى أنْ يُقروا كذلك بأن له سبحانه ما فيهما ، وهذه مسألة عقلية يهتدى إليها كل ذى فكر سليم ، فما دامت السموات والأرض لله ، فله ما فيهما ، وهَبْ أن لك قطعة أرض تمتلكها ، ثم عثرتَ فيها على شىء ثمين ، إنه فى هذه الحالة يكون ملكك شرعاً وعقلاً .

وينبغى للعاقل أنْ يتأمل هذه المسألة : لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض ، ومن هذه الأشياء الإنسان الذى كرَّمه الله ، وجعله سيداً لجميع المخلوقات وأعلى منها ، بدليل أنها مُسخَّرة لخدمته : الحيوان والنبات والجماد ، فهل يصح أن يكون الخادم أعظم من سيده أو أطول عمراً منه ؟

فعلى العاقل أن يتأمل هذه المسألة ، وأن يستعرض أجناس الكون ويتساءل : أيكون الجماد الذى يخدمنى أطول عمراً منى ؟

إذن : لابد أن لى حياة أخرى تكون أطول من حياة الشمس والقمر وسائر الجمادات التى تخدمنى ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة

حيث تنكدر الشمس ، وتتلاشى كل هذه المخلوقات ويبقى الإنسان .

إذن : أنت محتاج لما في الأرض ولما في السماء من مخلوقات الله ، وبه وحده سبحانه قوامها مع أنه سبحانه غنيٌّ عنها لا يستفيد منها بشيء ، فالله سبحانه خلق ما هو غنيٌّ عنه ؛ لذلك يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [لقمان] لأنه سبحانه بصفات الكمال خلق ، فلم يزدْه الخلق صفة كمال لم تكُنْ له ، فهو مُحْيٍ قبل أنْ يوجد مَنْ يُحييه ، مُعِزٌّ قبل أنْ يوجد من يعزه .

وقلنا : إنك لا تقول فلان شاعر لأنك رأيته يقول قصيدة ؛ بل لأنه شاعر قبل أن يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال .

فمعنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [لقمان] أي : الغنى المطلق ؛ لأن له سبحانه كل هذا الملْك في السموات وفي الأرض ، بل جاء في الحديث القدسي أن السماء والأرض بالنسبة لملْك الله تعالى كحلقة ألقاها مُلْقٍ في فلاة[1] ، فلا تظن أن مُلْك الله هو مجرد هذه المخلوقات التي نعلمها ، رغم ما توصَّل إليه العلم من الهندسة وحساب المسافات الضوئية .

فالله سبحانه هو الغنيُّ الغِنَى المطلق ؛ لأنه خلق هذا الخَلْق وهو غني عنه ، ثم أعطاه لعبيده وجعله في خدمتهم ، فكان من الواجب لهذا الخالق أن يكون محموداً ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [لقمان] وحميد فعيل بمعنى محمود ، وهو أيضاً حامد كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة] لكن ، شاكر لمن ؟

---

(١) عن أبي ذر الغفاري أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكرسي ، فقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » أخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه (١ / ١٥٠) وابن حبان (ص ٥٢ موارد الظمآن) ، وأبو نعيم في الحلية (١ / ١٦٦) .

قالوا : إذا كان العبد يشكر ربه ، وقد علَّمه الله : أن الذى يحيِّيك بتحية ينبغى عليك أنْ تُحيِّيَه بأحسن منها ، فربُّك يعاملك هذه المعاملة ، فإنْ شكرْتَهُ يزدك ، فهذه الزيادة شُكْر لك على شُكْرك لربك . أى : مكافأة لك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ من شَجَرَةٍ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان] منْ : هنا تفيد العموم أى : من بداية ما يُقال له شجرة ، وفرق بين أنْ تقول : ما عندى مال ، وما عندى من مال ، فالأولى لا تمنع أن يكون عندك القليل من المال الذى لا يُعتدُّ به ، أمَّا (من مال) فقد نفيتَ جنس المال قليله وكثيره . وتقول : ما فى الدار أحد . وربما يكون فيها طفل مثلاً أو امرأة ، أمَّا لو قلْتَ : ما فى الدار من أحد ، فهذا يعنى خُلوها من كل ما يُقال له أحد .

والشجرة : هى النبات الذى له ساق ، وقد تشابكتْ أغصانها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء]

أما النبات الذى ليس له ساق فهو العُشْب أو النجم الذى ينتشر على سطح الأرض ، خاصة بعد سقوط الأمطار ، وهذا لا تُؤخذ منه الأقلام ، إنما من الشجرة ذات الغصون والفروع .